بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، مَن يهده الله فلا مُضل له ، ومَن يضلل فلا هادي له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله . وبعد..

مقدمة :

إن الناس لم يُخلقوا عبثاً، وإنما خُلقوا لعبادة الله وحده وطاعته في أمره ونهيه ، ثم إنهم لن يُتركوا سُدًى ، بل بعد موتهم سيُبعثون ، وإلى ربهم سيرجعون ، وعلى أعمالهم سيُحاسبون، وأكثر الخلق عن هذا غافلون ولاهون . قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

قال تعالى: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩]، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[المطفّفين:٤-٦]. يقومون للحساب فينقسمون إلى قسمين؛ قسم يذهبون إلى دار النعيم الأبدي والفوز السرمدي : الجنة ، وقسم يذهبون إلى دار الشقاء والهموم والأحزان : النار ، فما إن يراها أهلها حتى يفزعوا لفظاعتها، ويندموا أعظم الندم، ويتمنوا الرجعة إلى دار العمل، فيقولون: ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧] ، ويقولون: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء:١٤]. ويقولون أيضًا: ﴿ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾[الأحزاب:٦٦]

أما القسم الأول فهم في دار النعيم التي أعدها الله –عز وجل– لعباده الصالحين ، وجعل فيها ما لا عين رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . فالأمر خطير ، إنها جنةٌ أو نار، قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥]

فإن كان كذلك فلا بد من الندم النافع في الحياة الدنيا قبل أن لا ينفع الندم ، وعلينا بالتوبة والمسارعة واستغلال

ساعات العمر في طاعة الله قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل، والله –عز وجل– من رحمته بالناس أخبرنا عمّا أعده للعصاة من العذاب الشديد ، بل إنه –سبحانه– أخبرنا عن ندمهم وحسرتهم وما يقولونه عند الموت وفي القبر وفي الآخرة .

ومن أجل تحصيل الندم قبل الموت والمسارعة بالاستعداد لذلك اليوم سنتكلم عن الندامة الكبرى التي تبدأ عند الموت عند المقصرين والعصاة غير التائبين، ثم تنتقل الندامة إلى القبر، ثم حين النفخ في الصور يوم القيامة، ثم حالهم وهم في النار، ثم نختم بذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين .

١- حال أهل الندامة عند الموت :

طلب العصاة عند الموت الرجعة لعمل الصالحات : قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] ، قال ابن كثير رحمه الله: « كل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً؛ ليستدرك ما فاته ، وهيهات كان ما كان، وأتى ما هو آتٍ، وكلٌ بحسب تفريطه »[١]

وعليه فسؤال الرجعة في الآية ليس خاصاً بالكافر ، بل يعمُّ كل مفرط.[٢]

العاصي والفاجر يدعو على نفسه بالويل عند حمل جنازته: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها أين يذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شئ إلا الإنسان، ولو سمعه لصُعق »[٣].

٢- حال أهل الندامة في القبر :

♦ إنهم يندمون أشد الندم، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا؛

(١) تفسير ابن كثير: (٣٧٣/٤)

(٢) بهذا قال القرطبي (١٤٩/١٢) وابن كثير (٢٥٥/٣) وابن سعدي (٣٧٤/٣) وغيرهم.

(٣) صحيح البخاري: (١٣١٦)

ليذكروا الله تعالى. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : مرَّ النبي ﷺ على قبر دفن حديثاً فقال: « ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتنفلون يزيدهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دنياكم »[٤]

♦ وأهل المعاصي –إن لم يتوبوا– يُعذبون في قبورهم؛ فيندمون أشد الندم . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرَّ رسول الله على قبرين فقال: « إنهما ليُعذبان ، وما يعذبان في كبير، أما هذا فكان لا يستتر من بوله، وأما هذا فكان يمشي بالنميمة »[٥]، قال النووي: «"لا يستتر من بوله" رُوي بثلاث روايات: يستتر، يستنزه ، يستبرئ ، وكلها صحيحة ومعناها: لا يتجنبه ويتحرز منه ، والله أعلم»[٦] ، وفي رواية للحديث: « أما أحدهما فيعذب في البول، وأما الآخر فيعذب في الغيبة »[٧].

وهناك معاصٍ أخرى يُعذب أصحابها في قبورهم –إن لم يتوبوا– مثل : أكل الربا والزنى والكذب والنوم عن الصلاة المكتوبة والمتبختر في مشيته ، وغيرها .

٣- حال أهل الندامة يوم القيامة :

قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:٥١- ٥٢] ، قال ابن سعدي: « يسرعون بين يدي ربهم، لا يتمكنون من التأني والتأخر ، وفي تلك الحال يحزن المكذبون، ويُظهرون الحسرة والندم، ويقولون: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ ، أي من رقدتنا في القبور »[٨] ، وأهل المعاصي إن لم يتوبوا فحالهم شديد يوم القيامة.

♦ حال العصاة المتكبرين يوم القيامة : عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: « يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال

(٤) السلسلة الصحيحة : (١٣٨٨)

(٥) صحيح البخاري: (١٣٦١) متفق عليه.

(٦) شرح مسلم: (٣/ ٢٠١)

(٧) صحيح الترغيب: (٦٦/١) ، راجع فتح الباري: (٤٧٠/١٠)

(٨) تيسير العزيز الحميد: (٢٤/٤)

الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، فيُساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار ، يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال »[٩].

♦ حال المرائي : عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله يقول : « مَن سمع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه وصغره وحقره »[١٠]

♦ وما هو حال العصاة الذين لا يؤدون زكاة الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم؟

♦ وهناك معاصٍ أخرى يعذب أصحابها –إن لم يتوبوا– قبل الموت ، منها :

– قال رسول الله ﷺ : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تأتي يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب »[١١] .

– قال رسول الله ﷺ : « مَن لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ثم ألهب فيه ناراً »[١٢]

وأصحاب المعاصي عرقهم على قدر معاصيهم :

– قال رسول الله ﷺ: « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً »[١٣] . وفي رواية عند مسلم: « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكون إلى كعبيه، ومنهم مَن يكون إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكون إلى حقويه، ومنهم مَن يُلجمه العرق إلجاماً »[١٤]، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:١٢]

♦ أهل المعاصي يندمون عندما تخف موازينهم يوم القيامة: قال تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا

(٩) مسند أحمد: (١٠/ ١٥٧)، قال الترمذي: حديث حسن.

(١٠) الترغيب والترهيب: (٤٩/١)

(١١) رواه مسلم: (٩٣٤) وغيره

(١٢) رواه أبو داود وابن ماجه، وحسنه الألباني في حجاب المرأة: (٨٨)

(١٣) متفق عليه ، مسلم: (٢٨٦٣)

(١٤) مسلم: (٢٨٦٤)

كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:٩]

♦أهل المعاصي هم المفلسون يوم القيامة فيندمون على ما فعلوا : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون مَن المفلس؟ قالوا المفلس فينا مَن لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيُعطى من حسناته، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار »[١٥] .

ولذلك لا بد من التوبة من جميع المعاصي ومنها حقوق الناس ، ورسول الله أمرنا بأن نتحلل من إخواننا المسلمين قبل يوم القيامة ، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَن كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه »[١٦] .

♦ أهل المعاصي -إذا لم يتوبوا- يندمون عندما يرون جهنم وتراهم : قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان:١٢] ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول : إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل مَن دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين »[١٧]

♦ أهل المعاصي -إن لم يتوبوا- يندمون على الصراط فوق النار: ورد في الصحيحين حديث الصراط الطويل وفيه: « يمر المؤمن عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب؛ فناجٍ مسلم ، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يُسحب سحباً »[١٨]

(١٥) مسلم: (٢٥٨١) وغيره
(١٦) صحيح البخاري: (٥/ ١٠١)
(١٧) صحيح الترمذي: (٢٥٧٤)
(١٨) صحيح البخاري: (٧٤٣٩)

٤- حال أهل الندامة وهم في النار والعذاب :

بعض المعاصي يُعذب أهلها في النار -إن لم يتوبوا، ولم يتداركهم الله برحمته- منهم المرائين في الجهاد وقراءة القرآن والإنفاق : قال فيهم رسول الله ﷺ: « أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة »[١٩] . قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: « إنما زاد عذاب أهل الرياء على سائر العصاة؛ لأن الرياء هو الشرك الأصغر، والذنوب المتعلقة بالشرك أعظم من المتعلقة بغيره »[٢٠] ، قال الله تعالى عن أهل النار: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧] ، وقال رسول الله ﷺ: « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على الناس معايشهم، فكيف بمَن تكون طعامه ؟ »[٢١]. وما أدراك ما النار! وما حجمها! وما فيها من عذاب والشراب والطعام والشقاء! قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[٢٢] .

خاتمــة :

فهذا أيها الأخوة حال العصاة وندمهم وتمنيهم الرجعة عند احتضارهم، وفي قبورهم، وعند نشورهم، وفي موقفهم بين يدي العزيز الجبار ، ثم حالهم إذا عُرضوا على النار وأُلقوا فيها، فانظروا فيما أمامنا من الأهوال إن لم نتب إلى الله -تعالى- من الذنوب والمعاصي ، ومكفرات الذنوب عشرة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وهي :

-التوبة، والاستغفار، والمصائب المكفرة، والحسنات الماحية، ودعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب، وسكرات الموت، وعذاب القبر، وأهوال القيامة، والشفاعة، ورحمة أرحم

(١٩) مسلم: (١٩٠٥)
(٢٠) التخويف من النار: (٢٢٣)
(٢١) سنن الترمذي: (٢٥٨٥) وقال: حسن صحيح، رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم.
(٢٢) مسلم: (٢٨٤٣)

الراحمين، فهلمَّ بنا إلى توبة صادقة تمحو جميع المعاصي والسيئات التي اقترفناها، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[التحريم:٨] ، وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾[الشورى:٤٧] وقال ابن كثير: «توبةً نصوحاً » أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات[٢٣] . وقال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة »[٢٤] .

♦ ولذلك أجمعت الأمة على وجوب التوبة من جميع الذنوب على الفور، ولا يجوز تأخيرها .

♦ ومَن منّا لا يفعل الذنوب؟ ومَن منّا لا يُخطئ؟ وفي الحديث: « كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون »[٢٥] .

♦ وتأخير التوبة ذنب يقتضي التوبة، فإذا أخّر العبد التوبة وتاب فعليه التوبة من التأخير أيضاً، ومن دعائه -عليه الصلاة والسلام-: « اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجلّه، خطأه وعمده ، سرّه وعلانيته ، أوله وآخره »[٢٦]

أما ما يُتاب منه فهو ما يلي :

أ- التوبة من ترك الحسنات وخاصة الواجبات .

ب- التوبة من الصغائر والكبائر وخاصة الشرك والبدعة.

أجمع أهل السنة على أن التوبة تصح من ذنبٍ مع الإقامة على غيره .

♦ العودة إلى الذنب لا تُبطل التوبة منه أولاً، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك المعاودة ،فإذا عاوده صار كمَن ابتدأ المعصية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(٢٣) تفسير ابن كثير: (٣٩١/٤)
(٢٤) صحيح مسلم: (٢٧٠٢)
(٢٥) الترمذي: (٢٤٩٩) رواه أحمد وابن ماجه وغيرهم.
(٢٦) صحيح مسلم: (٤٨٣)